



المنظومة القرآنية لضبط الغريزة الإنسانية دراسة تفسيرية في آليات العفة في القرآن الكريم

م . د. عدنان ياسين جاسم محمد.

وزارة التربية مديرية تربية الانبار / قسم تربية الكرمة.

The Quranic System for Regulating Human Instinct: An Interpretive Study of the Mechanisms of Chastity in the Holy Quran

Prepared by: Dr. Adnan Yaseen Jasim Mohammed

Affiliation: Ministry of Education / Anbar Directorate of Education / Karma Education Department

@gmail.com19Email: vasyndnan

الملخص

يتناول هذا البحث المنظومة القرآنية في ضبط الغريزة الإنسانية من خلال دراسة تفسيرية لآليات العفة الواردة في القرآن الكريم، ويهدف إلى الكشف عن المنهج القرآني في توجيه الغرائز وتنظيمها بما يحقق التوازن بين فطرة الإنسان ومتطلبات القيم الأخلاقية والاجتماعية، اعتمد البحث المنهج التفسيري التحليلي من خلال جمع الآيات المتعلقة بالعفة وضبط الشهوة، وتحليلها في ضوء السياق القرآني وأقوال المفسرين، مع إبراز الأبعاد المقاصدية والتربوية في الخطاب القرآني، وقد بينت الدراسة أن القرآن الكريم لم يقم على مبدأ كبت الغريزة أو إلغائها، بل على تهذيبها وتوجيهها عبر منظومة متكاملة من الوسائل، منها: ترسيخ الوازع الإيماني، وغيض البصر، وحفظ الفروج، وتشريع الزواج، وسدّ ذرائع الفساد، وبناء الرقابة الذاتية، كما كشفت الدراسة عن تكامل هذه الآليات في بناء شخصية متوازنة قادرة على تحقيق العفة والاستقامة في الحياة الفردية والاجتماعية، ممّا يعكس شمولية المنهج القرآني وواقعيته في معالجة الدوافع الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: القرآن_الكريم، العفة، الغريزة_الإنسانية.

Abstract

This study examines the Qur'anic system for regulating human instincts through an exegetical analysis of the mechanisms of chastity presented in the Qur'an. The research aims to explore the Qur'anic methodology in guiding and organizing human instincts in a way that maintains balance between human nature and moral and social values. The study adopts an analytical exegetical approach by collecting and examining Qur'anic verses related to chastity and the regulation of desire, analyzing them within their textual contexts and in light of classical Qur'anic exegesis, while highlighting their ethical and maqāsid-based dimensions. The findings demonstrate that the Qur'an does not advocate the suppression or negation of human instincts; rather, it promotes their refinement and proper guidance through an integrated system of moral and legislative mechanisms. These include strengthening spiritual consciousness .

Quran, Chastity, Human_Instinct, Quranic_Ethics

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، الذي خلق الإنسان وكرّمه، وأودع فيه من الغرائز والدوافع ما يحقق به عمارة الأرض وقيام الحياة، وجعل له من الهداية الربانية ما يضبط تلك الغرائز ويوجّهها الوجهة التي تحفظ إنسانيته وتحقق له التوازن في سلوكه الفردي والاجتماعي، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي جاء برسالةٍ جامعةٍ تهذب الفطرة ولا تصادمها، وتقوم الغريزة ولا تلغيها، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:



فإنَّ القرآن الكريم كتاب هدايةٍ شامل، جاء بمنهج متكاملٍ لبناء الإنسان وإصلاح المجتمع، يقوم على مراعاة فطرة الإنسان وما أودع الله فيه من دوافع وغرائز، وفي مقدمتها الغريزة الإنسانية التي تمثل أحد أهم محركات السلوك البشري، ولم يعالج القرآن هذه الغريزة بمنطق الإلغاء أو الكبت، كما لم يتركها دون ضابطٍ أو توجيه، بل قدّم منظومةً متكاملةً من المبادئ والقيم والآليات التي تضبطها وتوجّهها الوجهة التي تحقق للإنسان كرامته وللمجتمع استقراره، ومن هنا تبرز أهمية الوقوف على هذه المنظومة القرآنية وتحليلها تحليلًا تفسيريًا يكشف عن معالمها وأبعادها، ويبرز حكمتها التشريعية والتربوية في معالجة أحد أكثر القضايا التصاقًا بالطبيعة الإنسانية.

أولاً: أهمية الموضوع تتبع أهمية هذا الموضوع من كونه يتصل بأحد المقاصد الكبرى التي عالجها القرآن الكريم في بناء الإنسان والمجتمع، وهو مقصد حفظ الأخلاق وصيانة الفطرة الإنسانية، فالقرآن الكريم لم يقتصر في معالجته للغريزة الإنسانية على بيان الأحكام التشريعية المرتبطة بها، بل قدّم منظومة متكاملة من التوجيهات الإيمانية والتربوية والسلوكية التي تهدف إلى تحقيق العفة وصيانة المجتمع من الانحراف، كما تزداد أهمية هذا الموضوع في ظل التحولات الثقافية والاجتماعية المعاصرة التي يشهدها العالم، وما صاحبها من انتشار مظاهر الانفلات الأخلاقي وتراجع القيم الضابطة للسلوك الإنساني، الأمر الذي يجعل من دراسة المنهج القرآني في ضبط الغريزة الإنسانية ضرورة علمية وفكرية لإبراز شمولية القرآن وواقعيته في معالجة القضايا الإنسانية. ومن جهةٍ أخرى فإنَّ هذا الموضوع يندرج ضمن الدراسات التفسيرية الموضوعية التي تسعى إلى الكشف عن المنظومات القيمية والتشريعية في القرآن الكريم، وهو اتجاه علمي معاصر يهدف إلى إبراز تكامل الرؤية القرآنية في معالجة القضايا الإنسانية الكبرى، ومن بينها قضية العفة وضبط الشهوة، بما يعزز الفهم المقاصدي للنص القرآني ويكشف عن أبعاده الحضارية والتربوية.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع جاء اختيار هذا الموضوع لعدد من الاعتبارات العلمية والمنهجية، من أبرزها: أنّ قضية ضبط الغريزة الإنسانية تعد من القضايا المركزية في بناء الأخلاق الفردية والاجتماعية، وقد أولى القرآن الكريم عناية كبيرة بها من خلال مجموعة من الآيات والتوجيهات التي ترسم منهجاً متكاملًا لتحقيق العفة وصيانة المجتمع. كما أنّ كثيراً من الدراسات تناولت موضوع العفة أو الأحكام المرتبطة بها تناولاً فقهيًا أو أخلاقياً جزئياً، في حين أنّ دراسة هذه القضية في إطار منظومة قرآنية متكاملة من خلال التحليل التفسيري لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحث والتأصيل العلمي. ومن أسباب اختيار الموضوع أيضاً إبراز واقعية المنهج القرآني في التعامل مع الغرائز الإنسانية، حيث يقوم على مبدأ التوازن بين متطلبات الفطرة وضوابط الشريعة، وهو منهج يتسم بالاعتدال والوسطية ويبتعد عن طرفي الإفراط والتفريط. إضافة إلى ذلك فإنَّ دراسة آليات العفة في القرآن الكريم من منظور تفسيري تسهم في إبراز الأبعاد التربوية والإيمانية والتشريعية التي اعتمدها القرآن في بناء الشخصية المسلمة، وتكشف عن تكامل هذه الآليات في تحقيق الاستقامة الأخلاقية للفرد والمجتمع.

ثالثاً: الصعوبات التي واجهت البحث لا يخلو أي بحث علمي من جملة من الصعوبات والتحديات التي تواجه الباحث أثناء عمله، وقد واجه هذا البحث عدداً من الصعوبات العلمية والمنهجية، من أبرزها: تعدد الآيات القرآنية المرتبطة بموضوع العفة وضبط الغريزة وتوزعها في سور متعددة، الأمر الذي استلزم جمعها وتحليلها في إطار موضوعي متكامل يكشف عن وحدة المنهج القرآني في هذا المجال. كما أنّ بعض المفاهيم المرتبطة بموضوع البحث – مثل الغريزة والشهوة والعفة – تتداخل دلاليًا مع مفاهيم أخرى في الخطاب القرآني، ممّا استدعى بذل جهد علمي في تحرير هذه المفاهيم وبيان حدودها الدلالية في ضوء السياق القرآني وأقوال المفسرين. ومن الصعوبات كذلك محاولة الربط بين التفسير التراثي للآيات وبين القراءة الموضوعية المعاصرة التي تسعى إلى إبراز المنظومة القرآنية في معالجة الغرائز الإنسانية، بما يحافظ على أصالة التفسير ويستفيد في الوقت نفسه من المناهج العلمية الحديثة.

رابعاً: فرضية البحث يقوم هذا البحث على فرضية أساسية مفادها أنّ القرآن الكريم قدّم منظومة متكاملة لضبط الغريزة الإنسانية تقوم على مجموعة من الآليات المتكاملة، تشمل الأبعاد الإيمانية والتربوية والسلوكية والتشريعية، وأنَّ هذه الآليات لا تعمل بصورة منفصلة، بل تتكامل فيما بينها لتشكّل نظاماً أخلاقياً يحقق العفة ويحفظ توازن الإنسان النفسي والاجتماعي. كما يفترض البحث أنّ المنهج القرآني في



معالجة الغريزة الإنسانية يقوم على مبدأ التهذيب والتوجيه لا على الكبت أو الإلغاء، وأن هذا المنهج يمثل نموذجاً متوازناً في التعامل مع الدوافع الإنسانية، يجمع بين مراعاة الفطرة الإنسانية وتحقيق المقاصد الأخلاقية والاجتماعية للشريعة.

خامساً: هيكلية البحث اقتضت طبيعة الموضوع ومنهجه أن يُبنى البحث على مبحثين رئيسيين، يندرج تحتها عدد من المطالب التي تتناول جوانب الموضوع المختلفة بصورة متكاملة. فالمبحث الأول حُصِّص للتأصيل المفاهيمي للغريزة والعفة في الخطاب القرآني، حيث يتناول مفهوم الغريزة الإنسانية في القرآن الكريم، ثم مفهوم العفة وأبعادها الدلالية، ثم منهج القرآن في توجيه الغريزة الإنسانية وضبطها. أما المبحث الثاني فيتناول الآليات القرآنية لتحقيق العفة وضبط الغريزة، وذلك من خلال دراسة الآليات الإيمانية والتربوية التي تعزز الرقابة الذاتية لدى الإنسان، ثم الآليات السلوكية الوقائية التي تهدف إلى حماية الفرد من أسباب الانحراف، وأخيراً الآليات التشريعية والاجتماعية التي وضعها القرآن الكريم لحفظ العفة وصيانة المجتمع. وبذلك يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة تفسيرية تحليلية تكشف عن ملامح المنظومة القرآنية في ضبط الغريزة الإنسانية، وتبرز حكمة القرآن الكريم وعمق منهجه في بناء الإنسان وتوجيه سلوكه، بما يحقق التوازن بين مقتضيات الفطرة ومتطلبات القيم الأخلاقية والاجتماعية.

المبحث الأول: التأصيل المفاهيمي للغريزة والعفة في الخطاب القرآني

المطلب الأول: مفهوم الغريزة الإنسانية في القرآن الكريم

يمثل فهم طبيعة الغرائز الإنسانية مدخلاً أساسياً لفهم المنهج القرآني في توجيه السلوك الإنساني وضبطه؛ إذ إنَّ القرآن الكريم حين يخاطب الإنسان إنما يخاطبه بوصفه كائناً مركباً من عقل وروح وغريزة، ولذلك جاءت توجيهاته التشريعية والتربوية منسجمة مع هذا التكوين الفطري، ولم يرد لفظ الغريزة بصيغته الاصطلاحية في القرآن الكريم، إلا أن معناه حاضر بوضوح في عدد من الألفاظ القرآنية التي تشير إلى الدوافع الفطرية الكامنة في النفس الإنسانية، مثل: الشهوة، والفطرة، والميل، والهوى، ومن هنا فإنَّ دراسة مفهوم الغريزة في ضوء القرآن الكريم تقتضي الوقوف على دلالتها اللغوية أولاً، ثم بيان حضورها في الخطاب القرآني وموقف القرآن منها. في اللغة العربية تدل مادة (غ ر ز) على معنى الإدخال والثبوت، فيقال: غرز الشيء في الشيء إذا أدخله فيه وأثبتته، ومنه العُزْرُ لما يُعْرَزُ في الأرض أو غيرها، وقد توسع اللغويون في استعمال هذا الأصل للدلالة على ما يثبت في طبيعة الإنسان ويستقر في نفسه، يقول ابن منظور: "العُزْرُ إدخال الشيء في الشيء، وِعْرَزَ الشيءَ يَغْرِزه غِرْزاً إذا أثبته فيه"⁽¹⁾ ومن هذا المعنى اشتق مفهوم الغريزة للدلالة على الصفات أو الدوافع التي تثبت في طبيعة الإنسان وتكون جزءاً من تكوينه الفطري. وقد استعمل العلماء مصطلح الغريزة للدلالة على الدافع الفطري الذي يدفع الإنسان إلى سلوك معين دون حاجة إلى تعلم أو اكتساب. ويشير بعض أهل اللغة إلى أنَّ الغريزة هي السجية والطبيعة التي جُبل عليها الإنسان، يقول الزبيدي: "الغريزة هي الطبيعة التي يُخلق عليها الإنسان"⁽²⁾، وبهذا يتضح أن الغريزة في أصلها اللغوي تشير إلى ما هو مغروس في طبيعة الإنسان ومجبول عليه. أما في الاصطلاح العام لدى العلماء والمفكرين، فتطلق الغريزة على مجموعة الدوافع الفطرية التي تدفع الإنسان إلى إشباع حاجاته الطبيعية وتحقيق بقائه واستمراره، مثل غريزة حب البقاء وغريزة التناسل وغيرها، وقد أشار عدد من العلماء إلى أنَّ هذه الغرائز ليست أمراً مذموماً في ذاتها، بل هي جزء من النظام الذي أودعه الله في الإنسان لتحقيق عمارة الأرض واستمرار الحياة.

وعند الانتقال إلى الخطاب القرآني نجد أنَّ القرآن الكريم يعترف بوجود هذه الدوافع الفطرية في الإنسان، ويعرضها بوصفها جزءاً من طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها. ومن أبرز النصوص القرآنية في هذا

السياق قوله تعالى: ﴿رَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النُّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾

(1) لسان العرب، ابن منظور، 30/11، مادة غرز.

(2) تاج العروس، الزبيدي، 146/16.



(3) فالآية تشير إلى وجود الميل الفطري نحو الشهوات والمتع الدنيوية، وهو ميل مركوز في طبيعة الإنسان، وقد بين المفسرون أن المراد بتزيين الشهوات بيان ما جُبلت عليه النفوس من الميل إلى هذه الأمور، يقول الطبري: "إن معنى الآية أن الله أخبر عن ميل النفوس إلى هذه الشهوات وما جُعل فيها من الرغبة إليها" (4)، ويؤكد القرطبي المعنى نفسه حين يقرر أن حب الشهوات مركوز في طبع الإنسان (5).

ويكشف هذا النص القرآني عن حقيقة مهمة في الرؤية القرآنية للغريزة، وهي أن القرآن لا ينكر وجودها ولا يعاملها بوصفها خطيئة في ذاتها، بل يقرر وجودها باعتبارها جزءاً من الطبيعة البشرية، غير أن القرآن في الوقت نفسه لا يترك هذه الغرائز دون توجيه، بل يعمل على تهذيبها وضبطها بما يحقق التوازن في حياة الإنسان كما يشير القرآن الكريم إلى بعد آخر من أبعاد الطبيعة الإنسانية، وهو ما يعرف في

الخطاب القرآني بمفهوم الفطرة، يقول الله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ اللَّيِّ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (6) وقد فسر العلماء الفطرة بأنها الحالة الأصلية التي خلق الله الإنسان عليها، يقول ابن كثير: "أي الزم فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي الخلقة السليمة المستقيمة" (7). ويرى بعض العلماء أن الغرائز جزء من هذه الفطرة؛ لأنها تمثل الدوافع التي أودعها الله في الإنسان لتأمين حاجاته الأساسية وتحقيق مصالحه في الحياة.

ومن خلال تتبع الآيات القرآنية يتبين أن القرآن الكريم يعرض الغرائز الإنسانية ضمن رؤية متوازنة تقوم على

المبدأ الأول: الإقرار بوجود الغريزة بوصفها جزءاً من الطبيعة الإنسانية.
المبدأ الثاني: توجيه هذه الغريزة توجيهاً أخلاقياً يحقق مصلحة الإنسان.
المبدأ الثالث: ضبطها ضمن إطار تشريعي يحفظ توازن المجتمع واستقراره.

وقد أشار عدد من المفسرين إلى هذا التوازن في المنهج القرآني، فالإسلام لم يأت لإبطال الشهوات، وإنما جاء لتنظيمها وتوجيهها الوجهة الصحيحة (8)، فالشريعة إنما جاءت لضبط الشهوات وتوجيهها بما يحقق مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة (9). ومن هنا يمكن القول إن الغريزة في الرؤية القرآنية ليست شراً مطلقاً ينبغي القضاء عليه، كما أنها ليست قوة مطلقة ينبغي إطلاقها دون قيد، وإنما هي طاقة إنسانية تحتاج إلى توجيه وضبط، ولهذا جاء المنهج القرآني بمنظومة متكاملة من القيم والتشريعات التي تهدف إلى تحقيق هذا التوازن. إن إدراك هذه الحقيقة يمثل خطوة أساسية لفهم الآليات التي اعتمدها القرآن الكريم في تحقيق العفة وضبط الغريزة، إذ إن القرآن لا يتعامل مع الإنسان بوصفه كائناً ملائكياً منزهاً عن الدوافع، بل يتعامل معه بوصفه إنساناً له حاجات وغرائز، ويقدم له في الوقت نفسه المنهج الذي يمكنه من إدارة هذه الدوافع إدارة متوازنة تحقق له الاستقامة الأخلاقية والطمأنينة النفسية.

وبناءً على ذلك يمكن القول إن مفهوم الغريزة في القرآن الكريم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة الفطرة الإنسانية، وأن القرآن الكريم يعترف بهذه الغرائز ويقر بوجودها، لكنه في الوقت نفسه يضع لها الضوابط التي تحول دون انحرافها عن مقاصدها الصحيحة، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى دراسة الآليات القرآنية التي وضعها القرآن لتحقيق هذا الضبط، وهو ما سيتم تناوله في المطالب اللاحقة من هذا البحث.

المطلب الثاني: مفهوم العفة في القرآن الكريم وأبعادها الدلالية

يمثل مفهوم العفة أحد المفاهيم الأخلاقية المركزية في الخطاب القرآني، إذ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمنظومة القيم التي يسعى القرآن الكريم إلى ترسيخها في حياة الإنسان، لما للعفة من أثر بالغ في تحقيق الطهارة النفسية والاستقامة السلوكية وصيانة المجتمع من مظاهر الانحراف، ومن هنا فإن دراسة مفهوم العفة في القرآن الكريم تقتضي الوقوف على دلالاته اللغوية أولاً، ثم بيان استعمالاته في السياق القرآني، مع الكشف

(3) سورة آل عمران، الآية: 14.

(4) جامع البيان، الطبري، 238/6.

(5) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 48/4.

(6) سورة الروم، الآية: 30.

(7) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 6/314.

(8) مفاتيح الغيب، الرازي، 7/185.

(9) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 3/209.



عن علاقته بجملة من المفاهيم القيمة القريبة منه، مثل الطهارة والحياء والتقوى، وذلك بما يبرز التكامل الدلالي الذي يميز الخطاب القرآني في بناء المنظومة الأخلاقية. في اللغة العربية تدل مادة (ع ف ف) على معنى الكفّ والامتناع عمّا لا يحلّ أو لا يليق. يقول ابن فارس: " العين والفاء أصلٌ يدل على الكفّ عمّا لا يحلّ" (10)، ويقرّر ابن منظور أنّ العفة هي الامتناع عن المحارم وما لا يليق، ويقال عفت الرجل يعفت عفة إذا كفّت نفسه عن الحرام وتعفت عمّا في أيدي الناس (11). كما أنّ العفة تدل على صيانة النفس وضبط الشهوة (12)، ويتضح من هذه التعريفات اللغوية أنّ العفة تعني في أصلها ضبط النفس وكفّها عن الانجراف وراء الشهوات المحرمة.

وقد استعمل القرآن الكريم هذا المفهوم في سياقات متعددة تؤكد المعنى الأخلاقي للعفة بوصفها فضيلة إنسانية تقوم على ضبط الشهوة وصيانة النفس، ومن أبرز الآيات التي تناولت هذا المفهوم قوله تعالى: ﴿

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ﴾ (13) فالآية تدعو إلى الاستعفاف عند العجز عن الزواج، وهو ما يدل على أنّ العفة تمثل سلوكاً إرادياً يقوم على مجاهدة النفس وضبط رغباتها، وقد بيّن المفسرون أنّ الاستعفاف هنا يعني طلب العفة والامتناع عن الوقوع في الحرام، يقول الطبري: " إنّ معنى الاستعفاف هو الكفّ عما حرّم الله من الفواحش" (14)، فأنت المقصود هو التعفف عن الزنا والصبر حتى يبسر الله الزواج (15).

كما ورد مفهوم العفة في سياق آخر يدل على النزاهة المالية والطهارة الأخلاقية، كما في قوله تعالى: ﴿

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ ۗ﴾ (16)، فالآية تصف حال الفقراء الذين يمنعهم تعففهم عن السؤال من إظهار حاجتهم للناس. وقد أشار المفسرون إلى أنّ التعفف هنا يدل على كمال النفس وسموّه، يقول القرطبي: " إنّ التعفف هو الترفع عن المسألة مع الحاجة" (17)، ويرى الزمخشري أنّ الآية تشير إلى قوة النفس واستغنائها عن التذلل للناس (18). ويكشف هذا الاستعمال القرآني عن بعد مهم من أبعاد العفة، وهو بعدها الاجتماعي المرتبط بصيانة الكرامة الإنسانية.

ومن خلال تتبع الآيات القرآنية يتضح أنّ مفهوم العفة لا يقتصر على جانب واحد من جوانب السلوك، بل يشمل مجالات متعددة من حياة الإنسان، منها العفة في المجال الجنسي، والعفة في المجال المالي، والعفة في السلوك الاجتماعي، وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من العلماء، قال الراغب الأصفهاني: " أنّ العفة هي حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة" (19)، قال الغزالي: " أنّ العفة تعني اعتدال قوة الشهوة وخضوعها لسلطان العقل والشرع" (20).

ولا يقتصر الخطاب القرآني في بناء مفهوم العفة على استعمال اللفظ نفسه، بل يعزز هذا المفهوم من خلال مجموعة من المفاهيم القريبة التي تتكامل معه دلاليّاً، ومن أبرزها مفهوم الطهارة. فالطهارة في القرآن الكريم لا تقتصر على الطهارة الحسية، بل تشمل الطهارة المعنوية التي تتعلق بنقاء النفس وسلامة

(10) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 4/12.

(11) لسان العرب، ابن منظور، 9/256.

(12) ينظر: تاج العروس، الزبيدي، 112.

(13) سورة النور، الآية: 33.

(14) جامع البيان، الطبري، 312.

(15) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 7/187.

(16) سور البقرة، الآية: 73.

(17) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 8/184.

(18) الكشاف، الزمخشري، 1/242.

(19) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 343.

(20) إحياء علوم الدين، الغزالي، 1/67.



السلوك، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾⁽²¹⁾ وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ الطهارة هنا تشمل طهارة الظاهر والباطن معاً، قال البغوي: "إنَّ الطهارة تشمل التنزه عن الذنوب والمعاصي"⁽²²⁾، والطهارة في الآية تشمل الطهارة المعنوية التي تتعلق بصفاء النفس⁽²³⁾، ومن هنا يظهر الترابط بين الطهارة والعفة، إذ تمثل العفة أحد مظاهر الطهارة الأخلاقية.

ومن المفاهيم القريبة أيضاً من مفهوم العفة مفهوم الحياء، وهو من القيم الأخلاقية التي أكد عليها القرآن الكريم في بناء الشخصية المؤمنة، فالحياء يمثل رادعاً داخلياً يمنع الإنسان من الوقوع في السلوك المنحرف، وقد أشار القرآن إلى هذا الخلق في سياق مدح بعض الشخصيات، كما في قوله تعالى في قصة موسى (عليه السلام) قال تعالى: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾⁽²⁴⁾ وقد ذكر المفسرون أنَّ وصف المرأة بالحياء يدل على كمال أدبها وعفتها، قال الطبري: "إنَّ مشيها على استحياء يدل على عفافها وصيانة نفسه"⁽²⁵⁾، وقال الرازي: "أنَّ الحياء من أعظم الأخلاق التي تحفظ الإنسان من الانحراف"⁽²⁶⁾. ويظهر من ذلك أنَّ الحياء يمثل أحد الأسس النفسية التي تقوم عليها العفة.

ويرتبط مفهوم العفة كذلك بمفهوم التقوى، وهو من المفاهيم المحورية في الخطاب القرآني، فالتقوى تمثل حالة من المراقبة الداخلية التي تدفع الإنسان إلى اجتناب المعاصي والالتزام بأوامر الله يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا

مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾⁽²⁷⁾، فالآية تربط بين التقوى وبين كبح الهوى وضبط الشهوة، وهو ما يشكل جوهر العفة، قال ابن عاشور: "نهى النفس عن الهوى يمثل أساس الاستقامة الأخلاقية"⁽²⁸⁾.

ومن خلال هذا التحليل يتضح أنَّ مفهوم العفة في القرآن الكريم ليس مفهوماً معزولاً، بل هو جزء من منظومة أخلاقية متكاملة تتداخل فيها مجموعة من القيم، مثل الطهارة والحياء والتقوى، وتعمل هذه القيم مجتمعة على بناء شخصية إنسانية متوازنة قادرة على ضبط دوافعها وتوجيهها الوجهة التي تحقق رضا الله وصالح المجتمع.

وبذلك يمكن القول إنَّ العفة في الرؤية القرآنية تمثل قيمة أخلاقية شاملة تقوم على ضبط الشهوة وصيانة النفس وحفظ الكرامة الإنسانية، وهي في الوقت نفسه ثمرة لجملة من القيم الإيمانية والتربوية التي يسعى القرآن الكريم إلى ترسيخها في حياة الإنسان، ومن هنا تتضح أهمية دراسة الآليات التي اعتمدها القرآن الكريم لترسيخ هذه القيمة في حياة الفرد والمجتمع، وهو ما سيظهر بصورة أوضح عند دراسة منهج القرآن في توجيه الغريزة الإنسانية في المطلب الآتي.

المطلب الثالث: منهج القرآن في توجيه الغريزة الإنسانية

يمثل توجيه الغرائز الإنسانية أحد الجوانب الأساسية في المنهج التربوي والتشريعي للقرآن الكريم، إذ إنَّ الغريزة بما تحمله من دوافع وقوى داخلية تعد من أهم المحركات للسلوك الإنساني، ومن هنا جاء الخطاب القرآني بمنهج متوازن في التعامل مع هذه الغرائز، يقوم على الإقرار بوجودها بوصفها جزءاً من الفطرة الإنسانية، وفي الوقت نفسه توجيهها وضبطها ضمن إطار أخلاقي وتشريعي يحقق مصلحة الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد تميَّز هذا المنهج القرآني بسمتين أساسيتين: التوازن بين الفطرة والتكليف، ورفض طرفي الإفراط والتفريط، أي رفض منهج الكبت الكامل للغرائز كما رفض إطلاقها دون ضابط.

(21) سورة البقرة، الآية: 125.

(22) ينظر: معالم التنزيل، البغوي، 109/1.

(23) المحرر الوجيز، ابن عطية، 4/ 221.

(24) سورة القصص، الآية: 25.

(25) جامع البيان، الطبري، 19/ 402.

(26) مفاتيح الغيب، الرازي، 17/ 118.

(27) سورة النازعات، الآية 40_41.

(28) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 28/ 94.



إنَّ أول ما يلفت النظر في المنهج القرآني أنَّه يعترف بالطبيعة الفطرية للغرائز الإنسانية، ويقرر أنَّها جزء من التكوين الذي فطر الله الإنسان عليه، ويظهر ذلك في عدد من الآيات التي تشير إلى طبيعة الميل الفطري لدى الإنسان نحو الشهوات والمتع، يقول تعالى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَابْنَيْنِ

وَالْمَنْطَلِقِ الْمُنْقَطِرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾⁽²⁹⁾ فالآية تقرر أنَّ حب هذه الشهوات أمر مركوز في طبيعة الإنسان وهذه الشهوات زينت للناس؛ لأنَّ النفوس مجبولة على الميل إليها⁽³⁰⁾ ويكشف هذا التقرير القرآني عن مبدأ مهم، وهو أنَّ الإسلام لا يتعامل مع الإنسان باعتباره كائناً منزهاً عن الدوافع، بل باعتباره إنساناً ذا حاجات فطرية ينبغي توجيهها الوجهة الصحيحة.

غير أنَّ الاعتراف بوجود الغريزة في الخطاب القرآني لا يعني تركها دون ضابط، بل إن القرآن الكريم يضع لها إطاراً تشريعياً وأخلاقياً يحفظ التوازن في حياة الإنسان، وهذا ما يظهر في عدد كبير من الآيات التي تدعو إلى ضبط الشهوات وتوجيهها، ومن أبرز هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى

النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ، فالآية تشير إلى ضرورة كبح الهوى وضبطه من خلال استحضار مراقبة الله تعالى فإنَّ نهي النفس عن الهوى يعني منعها من اتباع الشهوات المحرمة⁽³¹⁾.

ومن خلال تتبع النصوص القرآنية يتضح أن المنهج القرآني يقوم على مبدأ التوازن بين الفطرة والتكليف فالفطرة تمثل الجانب الطبيعي في الإنسان، بينما يمثل التكليف الإطار الذي ينظم هذه الطبيعة ويوجهها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التوازن في قوله تعالى: ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيَّهَا ﴾، فالآية تؤكد أن الإنسان مخلوق على فطرة معينة، قال ابن عاشور: "أنَّ الفطرة تعني النظام الذي خلق الله الإنسان عليه من الاستعداد للخير والاعتدال في السلوك"⁽³²⁾، ومن هنا فإن التشريع الإسلامي لا يأتي لمصادمة الفطرة، بل ليهذبها ويقوم انحرافاتها.

ويظهر هذا المنهج المتوازن بوضوح في معالجة القرآن الكريم للغريزة الجنسية، إذ لم يدع إلى قمعها أو إنكارها، بل وضع لها الإطار المشروع الذي يحقق مقاصدها بطريقة تحفظ كرامة الإنسان واستقرار المجتمع، ومن أبرز مظاهر ذلك تشريع الزواج بوصفه الطريق المشروع لإشباع هذه الغريزة، يقول

تعالى: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾⁽³³⁾ وقد أشار القرطبي إلى أنَّ هذه الآية تتضمن الحث على الزواج لما فيه من حفظ الدين وصيانة النفس⁽³⁴⁾، كما يذكر ابن كثير أن الزواج من أعظم الوسائل لحفظ العفة وصيانة المجتمع من الفواحش⁽³⁵⁾.

ومن ناحية أخرى فإن القرآن الكريم يرفض منهج إطلاق الشهوات دون ضابط، لما يترتب على ذلك من فساد أخلاقي واجتماعي. ولهذا جاءت النصوص القرآنية بالنهي الصريح عن اتباع الهوى والانقياد

للسهوات المحرمة، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقد فسر الرازي فقال: "الهوى هنا ميل النفس إلى ما تهواه من غير اعتبار للحق والشرع"⁽³⁶⁾

وفي المقابل فإنَّ القرآن الكريم يرفض كذلك منهج الكبت الكامل للغرائز؛ لأنَّ ذلك يتعارض مع الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها، وقد أشار العلماء إلى أنَّ الإسلام جاء بمنهج الاعتدال الذي يوازن بين حاجات

(29) سورة آل عمران، الآية: 14.

(30) ينظر: جامع البيان، الطبري، 237/28.

(31) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 392/10، روح المعاني، الألويسي، 121/7.

(32) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 103/6.

(33) سورة النور، الآية: 32.

(34) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 183/4.

(35) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 284/4.

(36) مفاتيح الغيب، الرازي، 75/5.



الجسد ومتطلبات الروح، وقال الشاطبي: "إنَّ الشريعة مبنية على التوسط والاعتدال في جميع التكاليف"⁽³⁷⁾

كما يتجلى هذا التوازن في جملة من التوجيهات القرآنية التي تهدف إلى تهذيب الغريزة وضبطها تدريجياً، مثل الأمر بغض البصر وحفظ الفروج، يقول تعالى: ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾⁽³⁸⁾.

فإنَّ غرض البصر يمثل خطوة أساسية في منع أسباب الفتنة، وأنَّ الوقاية من الانحراف تبدأ بضبط مقدمات. ومن خلال هذا العرض يتبين أنَّ المنهج القرآني في توجيه الغريزة الإنسانية يقوم على مجموعة من الأسس المنهجية الواضحة، من أهمها: الإقرار بالطبيعة الفطرية للغرائز الإنسانية، وتوجيهها توجيهاً أخلاقياً ينسجم مع مقاصد الشريعة، وتحقيق التوازن بين متطلبات الجسد والروح، مع وضع الضوابط التشريعية التي تمنع انحراف الغريزة عن مقاصدها الصحيحة. وبذلك يتضح أنَّ القرآن الكريم قدَّم منهجاً تربوياً وتشريعياً متكاملًا في التعامل مع الغرائز الإنسانية، يقوم على الاعتدال والواقعية، ويبتعد عن المذاهب التي تدعو إلى إطلاق الشهوات بلا ضابط أو إلى كبتها بصورة مطلقة، وهذا المنهج المتوازن يعكس عمق الرؤية القرآنية لطبيعة الإنسان واحتياجاته، كما يكشف عن شمولية التشريع الإسلامي وقدرته على تحقيق التوازن بين الفطرة الإنسانية والقيم الأخلاقية.

المبحث الثاني: الآليات القرآنية لتحقيق العفة وضبط الغريزة

المطلب الأول: الآليات الإيمانية والتربوية لضبط الغريزة

إذا كان القرآن الكريم قد قرر في خطابه حقيقة الغريزة الإنسانية وبيَّن طبيعتها الفطرية، فإنه في الوقت نفسه وضع منظومة متكاملة من الوسائل التربوية والإيمانية التي تهدف إلى ضبط هذه الغريزة وتوجيهها الوجهة التي تحقق للإنسان التوازن الأخلاقي والاستقامة السلوكية. وتعدُّ الآليات الإيمانية والتربوية من أهم الأسس التي يعتمد عليها القرآن في هذا المجال؛ إذ إنَّ ضبط السلوك الإنساني في الرؤية القرآنية لا يقوم على القيود الخارجية وحدها، بل يعتمد بصورة أساسية على بناء الضمير الداخلي وتنمية الوازع الإيماني الذي يدفع الإنسان إلى مراقبة نفسه والالتزام بالقيم الأخلاقية حتى في غياب الرقابة الاجتماعية. ويأتي تقوية الوازع الإيماني في مقدمة هذه الآليات، إذ يمثل الإيمان بالله تعالى أساس البناء الأخلاقي في الإسلام، وهو القوة الداخلية التي تدفع الإنسان إلى الالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في مواضع متعددة، حيث يربط بين الإيمان والاستقامة الأخلاقية، يقول تعالى: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾⁽³⁹⁾ فالاستقامة هنا نتيجة مباشرة للإيمان الصادق. وقد أشار الطبري إلى أن الاستقامة تعني لزوم طاعة الله واجتناب معاصيه فالاستقامة تشمل التمسك بأوامر الله ظاهراً وباطناً⁽⁴⁰⁾.

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى من خلال ربطه بين الإيمان والعفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾⁽⁴¹⁾ فالآية جاءت في سياق الحديث عن صفات المؤمنين، مما يدل على أنَّ حفظ الفروج – وهو مظهر أساسي من مظاهر العفة – يعد ثمرة من ثمار الإيمان، وإنَّ حفظ الفروج يعني

(37) الموافقات، الشاطبي، 78/8 .

(38) سورة النور، الآية: 30.

(39) سورة فصلت، الآية: 30.

(40) ينظر: جامع البيان، الطبري، 74 / 8 .

(41) سورة المؤمنون، الآية : 5.



صيانة النفس عن الوقوع في الحرام⁽⁴²⁾، كما يرى النسفي أن الآية تشير إلى أن الإيمان الصادق يثمر عفة في السلوك وضبطاً للشهوات⁽⁴³⁾.

ويظهر أثر هذه الرقابة الإيمانية في عدد من النماذج التي عرضها القرآن الكريم، ومن أبرزها قصة يوسف عليه السلام، حين واجه إغراءً شديداً لكنه امتنع عنه بدافع الإيمان ومراقبة الله، يقول تعالى: ﴿ قَالَ

مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾⁽⁴⁴⁾ وقد أشار ابن عطية إلى أن قول يوسف عليه السلام يعكس قوة الإيمان واستحضار مراقبة الله في لحظة الفتنة⁽⁴⁵⁾.

ومن الآليات التربوية المهمة التي يعتمدها القرآن كذلك تزكية النفس، وهي عملية تربوية تهدف إلى تطهير النفس من الرذائل وتنمية الفضائل الأخلاقية. وقد أكد القرآن الكريم أهمية تزكية النفس في قوله تعالى: ﴿

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾⁽⁴⁶⁾ فالآية تشير إلى أن فلاح الإنسان مرتبط بتزكية نفسه وتطهيرها من الانحرافات. وقد بين الزمخشري أن تزكية النفس تعني تطهيرها من الذنوب وتنميتها بالأعمال الصالحة⁽⁴⁷⁾. ويرى ابن عاشور أن التزكية تمثل عملية إصلاح داخلي للنفس تجعلها قادرة على مقاومة الشهوات⁽⁴⁸⁾.

كما يشير القرآن الكريم إلى أن تزكية النفس تتحقق من خلال مجموعة من الوسائل التربوية، مثل العبادة والذكر والصبر، فالعبادات في الإسلام لا تقتصر على بعدها التعبدية، بل تحمل بعداً تربوياً يسهم في تهذيب الغرائز وضبط السلوك، يقول تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ ﴾⁽⁴⁹⁾ وقد ذكر الطبري أن الصلاة تنهى صاحبها عن المعاصي إذا أداها على وجهها الصحيح⁽⁵⁰⁾، ويرى ابن كثير أن أثر الصلاة في تهذيب السلوك يظهر في قدرتها على ردع الإنسان عن الفحشاء⁽⁵¹⁾ ومن الوسائل التربوية التي أكد عليها القرآن كذلك الصوم، لما له من أثر في تهذيب الشهوة وضبط الغريزة، يقول تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾⁽⁵²⁾ وقد أشار القرطبي إلى أن من حكم الصيام كسر الشهوة وتهذيب النفس⁽⁵³⁾، ويؤكد الشوكاني أن الصيام يربي الإنسان على ضبط رغباته والتحكم في شهواته⁽⁵⁴⁾.

ومن خلال هذا العرض يتضح أن القرآن الكريم يعتمد في توجيه الغريزة الإنسانية على بناء الوازع الداخلي لدى الإنسان، وذلك من خلال تعزيز الإيمان بالله، وترسيخ الشعور بمراقبته، وتربية النفس على الفضائل الأخلاقية، وهذه الآليات الإيمانية والتربوية تمثل الأساس الذي تقوم عليه بقية الآليات السلوكية والتشريعية في المنهج القرآني؛ لأن ضبط السلوك الخارجي لا يتحقق بصورة كاملة ما لم يرقم على أساس من الإيمان والرقابة الذاتية. وبذلك يظهر أن القرآن الكريم لم يكتف بوضع الأحكام التشريعية التي تضبط

(42) معالم التنزيل، البغوي، 237/65.

(43) ينظر: مدارك التنزيل، النسفي، 311 /8.

(44) سورة يوسف، الآية: 23.

(45) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، 304 /6.

(46) سورة الشمس، الآية: 9_10.

(47) ينظر: الكشاف، الزمخشري، 724/4.

(48) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 413/5.

(49) سورة العنكبوت، الآية: 25.

(50) ينظر: جامع البيان، الطبري، 365/5.

(51) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 312 /6.

(52) سورة البقرة، الآية: 183.

(53) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 271 /6.

(54) ينظر: فتح القدير، الشوكاني، 189 /1.



السلوك الإنساني، بل سبق ذلك ببناء الإنسان من الداخل، من خلال تنمية الإيمان وتزكية النفس، حتى يصبح قادراً على ضبط غرائزه بإرادته واختياره. وهذا المنهج التربوي يعكس عمق الرؤية القرآنية في معالجة الدوافع الإنسانية، ويؤكد أن تحقيق العفة في المجتمع يبدأ أولاً من بناء الضمير الإيماني في نفس الإنسان.

المطلب الثاني : الآليات السلوكية الوقائية في تحقيق العفة

بعد أن قرّر القرآن الكريم الأسس الإيمانية والتربوية التي تسهم في بناء الوازع الداخلي لدى الإنسان، انتقل إلى بيان مجموعة من الآليات السلوكية الوقائية التي تهدف إلى حماية الفرد والمجتمع من الانحراف الأخلاقي، ولا سيما ما يتصل بالغريزة الجنسية، وتقوم هذه الآليات على مبدأ الوقاية قبل العلاج، وهو مبدأ بارز في التشريع الإسلامي، حيث يسعى القرآن الكريم إلى سدّ منافذ الفتنة ومنع الأسباب المؤدية إلى الفساد قبل وقوعه. ومن أبرز هذه الآليات: غض البصر، وحفظ الفروج، واجتناب أسباب الفتنة، وتنظيم آداب العلاقات الاجتماعية.

ومن أهم الوسائل الوقائية التي أكدّ عليها القرآن الكريم غض البصر، لما للبصر من أثر مباشر في

إثارة الشهوة وتحريك الغريزة، وقد ورد الأمر بغض البصر في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ

أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (55) ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ

مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (56) وتدل الآيتان على أنّ غض البصر يمثل خطوة أساسية في بناء العفة

الفردية وصيانة المجتمع من الانحراف، وقال الطبري: "أن معنى غض البصر هو كفه عما لا يحلّ النظر إليه" (57)، ويرى الزمخشري أنّ الأمر بغض البصر يدل على أنّ النظر هو أول أسباب الفتنة، ولذلك جاء النهي عنه ابتداءً (58). كما يذكر ابن كثير أنّ حفظ الفروج جاء بعد غض البصر؛ لأنّ النظر بريد الزنا ومقدمته (59).

وقد أدرك علماء التربية الإسلامية أثر النظر في إثارة الشهوة، ولذلك أكدوا على أهمية ضبطه، يقول الغزالي إنّ النظر أصل عامة الفتن، وأنّ حفظ العين من المحرمات من أهم وسائل حفظ القلب من الانحراف (60).

ومن الوسائل الوقائية التي أكد عليها القرآن الكريم كذلك حفظ الفروج، وهو مظهر أساسي من مظاهر العفة في السلوك الإنساني. وقد ورد هذا المفهوم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك قوله

تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (61) وقد بيّن المفسرون أنّ حفظ الفروج يعني صيانة النفس عن

الوقوع في الفواحش، يقول القرطبي: "إنّ المراد حفظها من الزنا ومن كل ما لا يحلّ" (62)، قال البغوي: "إنّ المؤمن الحق هو الذي يضبط شهوته ضمن حدود الشرع" (63)، ويؤكد ابن عطية أنّ حفظ الفروج يمثل مظهراً من مظاهر الطهارة الأخلاقية التي يربي القرآن عليها المجتمع المسلم (64).

كما لم يكتف القرآن الكريم بالأمر بالعفة، بل سعى إلى سدّ ذرائع الفتنة التي قد تؤدي إلى الانحراف، وذلك من خلال جملة من التوجيهات السلوكية التي تهدف إلى حماية المجتمع من أسباب الفساد، ومن أبرز

(55) سورة النور، الآية: 30.

(56) سورة النور، الآية: 31.

(57) جامع البيان، الطبري، 7/ 309.

(58) ينظر: الكشاف، الزمخشري، 482/5.

(59) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 285.

(60) إحياء علوم الدين، الغزالي، 214.

(61) سورة المؤمنون، الآية: 5.

(62) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 118.

(63) معالم التنزيل، البغوي، 239.

(64) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، 344.



هذه التوجيهات النهي عن الاقتراب من الزنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سِيْلًا﴾⁽⁶⁵⁾ وقد نبه المفسرون إلى أن التعبير القرآني جاء بصيغة النهي عن القرب من الزنا، لا عن الزنا نفسه فقط، للدلالة على تحريم كل ما يؤدي إليه من أسباب ومقدمات، يقول الرازي "إن النهي عن القرب يتضمن النهي عن جميع الوسائل المفضية إليه"⁽⁶⁶⁾. كما يرى الشوكاني أن الآية تدل على وجوب اجتناب كل ما يفضي إلى الفاحشة⁽⁶⁷⁾.

ومن الآليات الوقائية التي أرسى القرآن الكريم قواعدها أيضاً تنظيم آداب العلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء، وذلك بما يحفظ كرامة الإنسان ويمنع أسباب الفتنة. ومن أبرز مظاهر ذلك الأمر بالحجاب والستر، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾⁽⁶⁸⁾.

وقد أشار ابن كثير إلى أن هذه الآية تهدف إلى صيانة المرأة وحمايتها من الأذى⁽⁶⁹⁾، ويرى البيضاوي أن إنداء الجلباب يدل على الستر والاحتشام الذي يمنع أسباب الفتنة⁽⁷⁰⁾.

كما نظم القرآن الكريم آداب الاستئذان في البيوت، لما في ذلك من حماية للخصوصية ومنع لمظاهر الانكشاف التي قد تثير الشهوة، يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الزَّيْنَةُ إِذَا نَزَلْتُمْ عَلَيْهَا وَإِنَّ عَلَيْهَا لَأَنْزُلٌ مِمَّنْ يُحِبُّ الْحُلُمَ﴾⁽⁷¹⁾.

وقد بين الطبري أن هذه الآية جاءت لحفظ العورات ومنع الاطلاع على ما لا ينبغي الاطلاع عليه⁽⁷²⁾ ويرى ابن عاشور أن تشريع الاستئذان يمثل مظهراً من مظاهر العناية القرآنية بحماية الحياة الأسرية من أسباب الفتنة⁽⁷³⁾.

ومن خلال هذا العرض يتضح أن القرآن الكريم قد وضع منظومة متكاملة من الآليات السلوكية الوقائية التي تهدف إلى حماية المجتمع من الانحراف الأخلاقي، وذلك من خلال ضبط السلوك الفردي وتنظيم العلاقات الاجتماعية، وتتميز هذه الآليات بأنها تقوم على مبدأ الوقاية، حيث تسعى إلى منع أسباب الفتنة قبل وقوعها، مما يعكس حكمة التشريع القرآني وعمق نظرته في معالجة الدوافع الإنسانية.

وبذلك يظهر أن تحقيق العفة في المنهج القرآني لا يقتصر على الوعظ الأخلاقي أو التوجيه النظري، بل يقوم على مجموعة من التدابير العملية التي تنظم حياة الإنسان وسلوكه اليومي، وهذه التدابير السلوكية تمثل حلقة مهمة في المنظومة القرآنية لضبط الغريزة الإنسانية، إذ تكمل ما بدأت الآليات الإيمانية والتربوية، وتمهد في الوقت نفسه للآليات التشريعية والاجتماعية التي تهدف إلى بناء مجتمع طاهر قائم على القيم الأخلاقية الرفيعة.

المطلب الثالث: الآليات التشريعية والاجتماعية في حفظ العفة

لا يقتصر المنهج القرآني في توجيه الغريزة الإنسانية على الجوانب الإيمانية والتربوية أو التدابير السلوكية الوقائية فحسب، بل يمتد ليشمل منظومة من التشريعات والضوابط الاجتماعية التي تهدف إلى حماية المجتمع من الانحراف الأخلاقي، وصيانة كرامة الإنسان، وتحقيق التوازن بين حاجاته الفطرية ومتطلبات الاستقامة السلوكية، فالقرآن الكريم لم يترك قضية العفة في نطاق التوجيه الأخلاقي المجرد، وإنما عززها بجملة من الأحكام التشريعية والتنظيمات الاجتماعية التي تعمل على بناء بيئة اجتماعية طاهرة تساهم في حفظ الغريزة وتوجيهها الوجهة الصحيحة، ومن أبرز هذه الآليات: تشريع الزواج، وتحريم الزنا، وسد ذرائع الفساد، وبناء المجتمع القائم على القيم الأخلاقية.

(65) سورة الإسراء، الآية 32.

(66) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، 184.

(67) ينظر: فتح القدير، الشوكاني، 312.

(68) سورة الأحزاب، الآية 59.

(69) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 491.

(70) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، 331.

(71) سورة النور، الآية 58.

(72) ينظر: جامع البيان، الطبري، 325.

(73) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 217.



ويأتي تشريع الزواج في مقدمة هذه الآليات؛ إذ يمثل الطريق المشروع الذي شرعه الإسلام لإشباع الغريزة الجنسية في إطار من الطهارة والاستقرار الاجتماعي، وقد أكد القرآن الكريم هذا التشريع في مواضع متعددة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ (74).

فالآية تحث المجتمع على تيسير الزواج وتشجيعه بوصفه وسيلة أساسية لحفظ العفة، الأمر في هذه الآية يتضمّن الحث على تزويج من لا زوج له لما في ذلك من إعفاف النفس وصيانة المجتمع كما أن الزواج من أعظم الوسائل التي شرعها الإسلام لحفظ الفروج وصيانة الأخلاق أن الشريعة حثت على الزواج لما فيه من تحصين الإنسان من الوقوع في الفاحشة (75).

وقد أدرك علماء الإسلام البعد الاجتماعي لهذا التشريع، إذ إن الزواج لا يقتصر على كونه وسيلة لإشباع الغريزة، بل يمثل أساساً لبناء الأسرة التي تعد اللبنة الأولى في بناء المجتمع.

وفي مقابل تشريع الزواج، جاء القرآن الكريم بتحريم قاطع للزنا، لما يترتب عليه من آثار مدمرة على الفرد والمجتمع، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (76)

وقد وصف القرآن الزنا بأنه فاحشة لما فيه من انتهاك لحرمة الأخلاق وإفساد للعلاقات الاجتماعية، ويذكر الرازي أنّ وصف الزنا بالفاحشة يدل على قبحه الشديد لما يترتب عليه من اختلاط الأنساب وفساد المجتمع (77)، كما يبين البغوي أنّ النهي عن الزنا يشمل النهي عن كل ما يؤدي إليه من مقدمات (78).

كما شدّد القرآن الكريم في مواجهة هذه الجريمة من خلال تقرير العقوبات الرادعة التي تهدف إلى حماية

المجتمع من انتشار الفاحشة، يقول تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (79) فإنّ تشريع هذه العقوبة يهدف إلى صيانة المجتمع من انتشار الفساد الأخلاقي وإقامة الحدود تمثل حماية للمجتمع وردعاً لمن تسول له نفسه الوقوع في الفاحشة (80).

ومن الآليات التشريعية المهمة التي يعتمد عليها القرآن الكريم كذلك سدّ ذرائع الفساد، وهو مبدأ تشريعي يقوم على منع الوسائل التي قد تؤدي إلى الوقوع في الحرام، وقد تجلّى هذا المبدأ في عدد من الأحكام والتوجيهات القرآنية التي تهدف إلى منع الأسباب المؤدية إلى الفاحشة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك النهي عن الخلوة غير المشروعة، والأمر بالحجاب، وتنظيم آداب الاستئذان، وغيرها من التوجيهات التي سبق بيانها في المطالب السابقة، كما يؤكد الشاطبي أنّ منع الوسائل المؤدية إلى الفساد يعد من مقاصد التشريع الإسلامي (81).

ولا تقتصر الآليات القرآنية على الجانب التشريعي فحسب، بل تمتد لتشمل بناء البيئة الاجتماعية الطاهرة التي تساعد على ترسيخ العفة في المجتمع، فالقرآن الكريم يسعى إلى بناء مجتمع قائم على القيم الأخلاقية، يتعاون أفرادها على حفظ الفضيلة ومكافحة مظاهر الفساد، ومن أبرز مظاهر ذلك النهي عن

إشاعة الفاحشة في المجتمع، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (82) وقد أشار الطبري إلى أنّ الآية تحذر من نشر الفواحش بين الناس أو الترويج لها (83)، فإنّ المقصود بالآية حماية المجتمع من انتشار الفساد الأخلاقي (84)

(74) سورة النور، الآية: 19.

(75) ينظر: جامع البيان، الطبري، 306، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 284، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 181

(76) سورة الأسراء، الآية: 32.

(77) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، 183

(78) ينظر: معالم التنزيل، البغوي، 412.

(79) سورة النور، الآية: 2.

(80) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 279، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 154.

(81) ينظر: الموافقات، الشاطبي، 195.

(82) سورة النور، الآية: 19.

(83) ينظر: جامع البيان، الطبري، 312.



كما يرسخ القرآن الكريم مبدأ التكافل الأخلاقي بين أفراد المجتمع، من خلال الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، وقد ذكر الماوردي: "أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثلان صمام أمان لحماية المجتمع من الانحراف الأخلاقي"،⁽⁸⁵⁾ ويؤكد الشوكاني أن هذا المبدأ يسهم في بناء مجتمع متماسك يقوم على التعاون في حفظ الفضيلة⁽⁸⁶⁾.

ومن خلال هذا العرض يتبين أنَّ القرآن الكريم قد وضع منظومة متكاملة من الآليات التشريعية والاجتماعية التي تهدف إلى حفظ العفة وصيانة المجتمع من الفساد الأخلاقي، فهذه الآليات تبدأ بتوفير الطريق المشروع لإشباع الغريزة من خلال تشريع الزواج، وتستمر بتحريم الزنا وفرض العقوبات الرادعة لمن يرتكبه، كما تشمل سدِّ الذرائع المؤدية إلى الفاحشة، وبناء بيئة اجتماعية تقوم على القيم الأخلاقية والتعاون في حفظ الفضيلة.

وبذلك يتضح أنَّ المنهج القرآني في ضبط الغريزة الإنسانية يقوم على رؤية شاملة تجمع بين التربية والإيمان، والوقاية السلوكية، والتنظيم التشريعي والاجتماعي، وهذه المنظومة المتكاملة تعكس حكمة التشريع القرآني وعمق نظريته في معالجة الطبيعة الإنسانية، كما تؤكد أنَّ تحقيق العفة في المجتمع لا يتم من خلال وسيلة واحدة، بل عبر شبكة من القيم والتشريعات التي تتكامل فيما بينها لتحقيق الاستقامة الأخلاقية للفرد والمجتمع.

الخاتمة

بعد رحلة طويلة وعميقة في دراسة المنظومة القرآنية لضبط الغريزة الإنسانية، واطلاع دقيق على الآليات الإيمانية، والسلوكية، والتشريعية والاجتماعية، تمكنا من التوصل إلى فهم متكامل للرؤية القرآنية في تنظيم الغرائز البشرية وتحقيق العفة، بعيداً عن التطرف أو الكبت، وقريباً من الاعتدال والواقعية، ومن هذا المنطلق، يظهر أنَّ القرآن الكريم يقدم رؤية شاملة تجمع بين التربية الروحية، والانضباط الذاتي، والضوابط الاجتماعية والتشريعية، بحيث تضمن بناء شخصية متوازنة قادرة على مواجهة تحديات الغرائز الطبيعية دون الإخلال بالقيم الأخلاقية والاجتماعية.

ونلخص أهم النتائج في الآتي:

1. القرآن الكريم يعترف بالطبيعة الفطرية للغرائز الإنسانية ويؤكد أنَّها جزء من التكوين الإنساني، ويهدف إلى توجيهها لا قمعها أو إطلاقها بلا ضابط.
2. الوازع الإيماني يمثل الأساس في ضبط الغرائز، إذ إنَّ الإيمان بالله ورقابته يشكلان القوة الداخلية التي تمنع الانحراف عن الطريق الصحيح.
3. تزكية النفس وتهذيبها بالعبادات والأخلاق من أهم الآليات التي تهيئ الإنسان للالتزام بالعفة والضبط الذاتي للشهوات.
4. الوقاية السلوكية من خلال غض البصر وحفظ الفروج تمثل خط الدفاع الأول ضد الفتنة والانحراف، وهي خطوات عملية لحماية الفرد والمجتمع.
5. سدِّ ذرائع الفساد واجتناب مسببات الفواحش يعد جزءاً من المنهج الوقائي، حيث يهدف إلى منع أسباب الانحراف قبل وقوعه.
6. تشريع الزواج يمثل الطريق المشروع لإشباع الغريزة الجنسية بما يحقق استقرار الفرد والأسرة والمجتمع، ويضمن العفة ضمن إطار شرعي.

(84) المحرر الوجيز، ابن عطية، 347 .

(85) الأحكام السلطانية، الماوردي، 214.

(86) فتح القدير، الشوكاني، 395 .



7. تحريم الزنا وفرض العقوبات الرادعة يسهم في حماية المجتمع من الفساد الأخلاقي، ويضمن عدم التفريط في الضوابط الشرعية.
8. بناء البيئة الاجتماعية الطاهرة والقيمية يضمن ترسيخ العفة في المجتمع من خلال التعاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
9. المنهج القرآني متكامل بين التربية والإيمان، والسلوك والضوابط التشريعية، مما يعكس رؤية عملية واقعية في التعامل مع الطبيعة الإنسانية.
10. تحقيق العفة والاستقامة لا يقتصر على الفرد، بل يمتد ليشمل الأسرة والمجتمع، مما يظهر شمولية وعمق المنهج القرآني في معالجة الغرائز الإنسانية.

في الختام، يتضح أنّ القرآن الكريم لم يأتي بمجرد وعود أخلاقية أو تعليمات شكلية، بل قدّم منظومة متكاملة تراعي الفطرة الإنسانية، وتعزز الوازع الداخلي، وتضع ضوابط سلوكية وتشريعية واجتماعية، بما يجعل الفرد قادراً على تحقيق العفة والاستقامة، ويضمن بناء مجتمع متوازن أخلاقياً وروحياً.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. الأحكام السلطانية، علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي (ت 450هـ)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
2. إحياء علوم الدين، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ)، ط3، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
3. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت 685هـ)، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
4. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي (ت 1205هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط1، دار الهداية، الكويت، 1965م.
5. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ)، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
6. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط2، دار طيبة، الرياض، 1999م.
7. جامع البيان عن تأويل أي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م.
8. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي (ت 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م.
9. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت 1270هـ)، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
10. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت 1250هـ)، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1994م.
11. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت 538هـ)، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.
12. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري (ت 711هـ)، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، ط1، دار المعارف، القاهرة، د.ت.



13. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (ت 542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.
14. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت 710هـ)، ط1، دار الكلم الطيب، بيروت، 1998م.
15. معالم التنزيل، الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي (ت 516هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1999م.
16. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، محمد بن عمر بن الحسن الرازي (ت 606هـ)، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
17. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1992م.
18. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الفكر، بيروت، 1979م.
19. الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت 790هـ)، تحقيق: عبد الله دراز، ط1، دار المعرفة، بيروت، د.ت.